كُليَّة اللاَّهوت الإنجيليَّة بالقاهرة
الأربعاء ١٠ فبراير سنة ٢٠١٦م

القُمُّص متى المسكين، السِّيرة والملامح الفكريَّة

الإخوة والأخوات الأحباء
أشكركُم على دعوتكم الكريمة، للمشاركة في هذه النَّدوة، والتي تحملُ عنواناً هو: "القُمُّص متى المسكين، السِّيرة والملامح الفكريَّة".

ولقد ورد إليَّ بعضُ الأسئلة بهذا الخصوص، أنتقي منها سؤالَين، بحسب الوقت المتاح لي، لعلَّ إجابة السؤال الأوَّل، تغطِّي جانباً بسيطاً من الملامح الفكريَّة لأبي القُمُّص متى المسكين (١٩١٩- ٢٠٠٦م)، أمَّا إجابة السؤال الثَّاني، فتُلقي الضَّوء على جانب من علاقته برُهبان دير القدِّيس أنبا مقار، حتى في أثناء العمل، وهو ما لم يُكتب عنه من قبل.

السؤال الأوَّل الذي ورد إليَّ هو: ما هو دور الرَّهبنة في مصر في حفظ الإيمان المسيحي؟
والسؤال الثَّاني هو: ما هي ملامح خدمة الأب متى المسكين في الدَّير من نحو علاقته بالرُّهبان، وبالطَّبيعة ... الخ.

وأمَّا عن إجابة السؤال الأوَّل، أقول:
نشأت الرَّهبنة في مصر، كنظام ثابت مستقر في القرن الرَّابع الميلادي، منذ زمن القدِّيس الأنبا أنطونيوس (٢٥١- ٣٥٦م) أب جميع الرُّهبان، والذي تتلمذ على يديه البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م). ولقد ورَثَت الرَّهبنة في مصر مواصلة الحفاظ على إيمان كنيسة الإسكندريَّة، بعد انزواء مدرسة الإسكندريَّة اللاَّهوتيَّة بعد القرن الخامس الميلادي. وكان لدير القدِّيس أنبا مقار، الدَّور الرِّيادي في هذا المجال، ليس في هذه الفترة المبكِّرة من تاريخ كنيسة الإسكندريَّة فحسب، بل وعلى امتداد القرون من السَّابع إلى الرَّابع عشر للميلاد، إذ تبوأ الكُرسي البابوي خلال هذه الفترة المذكورة ستَّةٌ وعشرون بطريركاً من رُهبان دير أنبا مقار. ولا يفوتُنا أنَّ القدِّيس كيرلُّس الكبير (٤١٢-٤٤٤م) في القرن الخامس الميلادي، من رُهبان بريَّة مقاريوس. أمَّا آخر بطريرك من هذا الدَّير المذكور، فهو البابا ديمتريوس الثَّاني في النِّصف الثَّاني من القرن التَّاسع عشر (١٨٦٢-١٨٧٠م). وهكذا شارك بطاركة الكنيسة القبطيَّة الذين اختيروا من هذا الدَّير، وعلى مدى العُصور - إلى جانب آباء وعُلماء ومعلِّمي كنيسة الإسكندريَّة - شاركوا بدور محوري في حماية التُّراث الإيماني والآبائي واللِّيتورجي والقانوني، لكنيسة الإسكندريَّة.

وفي العصر الحديث، ومن نفس هذا الدَّير، كانت كتابات وعظات أبينا القُمُّص متى المسكين، سبباً في إثراء الحياة الآبائيَّة والإيمانيَّة واللِّيتورجيَّة والرُّوحيَّة والكتابيَّة، لكنيسة الإسكندريَّة، وهو ما امتد أثره لكلِّ كنائس المسكونة شرقاً وغرباً.

وأودُّ أن أسردُ على حضراتكم جانباً يسيراً من ملامحه الفكريَّة. فأبونا متى المسكين - وكما تعلَّمنا منه - هو مثالٌ يحتذى في تمسُّكه بإيمان كنيسته الأرثوذكسيَّة، وفي ذات الوقت احترامِه لإيمان وعقائد الكنائس الأُخرى. فكَتَبَ في سنة ١٩٧١م، يقول: "... نحن حينما نفرِّق بين منهج بروتستانتي ومنهج أرثوذكسي، فنحنُ في الحقيقة لا نتعرَّض لعقائد، وإنما نفرِّق أساساً بين منهج غربي، ومنهج شرقي. فالبروتستانتيَّة وليدة عقل ألماني، قامت مناهجُها على أساس المنطق العقلي والمحاجاة الفكريَّة، والحريَّة الفرديَّة لإنسان أو لبعض النَّاس الغربيِّين، الذين لم يستسيغوا ولن يستسيغوا أن يخضعوا للرُّوح إلاَّ بما يقبل العقل. فالمنهج البروتستانتي منهجٌ عقليٌّ فردي. ولأنَّ لكلِّ إنسان عقلُه، لذلك صار لكلِّ إنسان غربي، منهجه ودينه ... ومعروف أن الرُّوح لا يعمل أبداً على مستوى فردي، فهو يجمع ولا يفرِّق ... فلا خلاص في المنهج الأرثوذكسي خارج الكنيسة، أي خارج الجماعة المتَّحدة بجسد المسيح وروحه. الأسرار المرفوضة في المنهج البروتستانتي، هي في المنهج

الأرثوذكسي، أساس التَّجميع والوحدة"[١].

وبعد رُبع قرن من هذا الذي كتبه، كَتَبَ في موضوع وحدة الكنائس، وبرؤيته الثَّاقبة، فيقول:

"أنظر إلى هذا القانون الذي وضعه المسيح للتَّلاميذ، أي للكنيسة: «مَن ليس علينا فهو معنا»، أليس هذا باباً مفتوحاً؛ طالما الذي يكرز باسم المسيح ليس ضدَّنا، فعلينا أنْ نقترب إليه بالمحبَّة، وهو يقتربُ إلينا بالمحبَّة، حتى نخدم معاً اسماً واحداً. لأنَّ انقسامَنا أحدث انقساماً في اسم المسيح أمام العالم. فإنْ كنَّا نخدم اسمَ المسيح حقًّا، واسمُ المسيح واحد لا ينقسم، أصبح انقسامُنا بسبب الاسم، عاراً علينا وعلى اسم المسيح. وإنه لأمر مستحيل، أن يعبُد اثنان المسيح بحق وإخلاص، وهُما متخاصمان وأعداءٌ لبعضهما. الكنيسة المنقسمة في العالم اليَوم، استطاعت بسُلطانها وقوانينها، أن تُدخل العداوة والفُرقة والقطيعة في صميم الإيمان والعقيدة، وتجعل الشَّعب يؤمن مرغَماً، بأنَّ عقيدَته هي الحق، وعقيدة الغير خطأ، ويلزم الفُرقة والبُعد، بل والحرص والقطيعة، بل والعداوة، حتى يظلَّ كلُّ شعب على حق!!

ليس المطلوب الآن وحدة العقيدة والنُّطق الواحد بكلِّ مفردات الإيمان، بل المطلوب قبول كلُّ واحد للآخر، على أنه حقٌ لنفسه، وعلى أنَّ له إيماناً حقيقياً صادقاً لنفسه، وعلى أساس محبَّة صادقة من القلب. هذا يمهِّد للمسيح الموجود في الوسط، أنْ يمارس سُلطان وجوده. لأنه أن تتصالح كلُّ الكنائس وتتَّفق بالمداولات على إيمان وعقيدة موحَّدة، أمرٌ مستحيل للطَّاقة البشريَّة. ولكن يستحيل أن يجتمع الجميع بحضور المسيح، ولا يُوحِّد المسيح الإيمان والعقيدة بحضوره. لأنَّ ما أفسده الإنسان، لا يُصلحه إنسان، ولكنَّ طبيعة المسيح ووظيفتَه، أن يُصالح المضادات، ويجعل الاثنين واحداً (أفسس ٢:١٤)"[٢].

ومن أجل ذلك، وبحسب فكر الأب متى المسكين، ينبغي أن نفهم أنه ليس ذوبان العقائد المختلفة للكنائس في بعضها البعض هو تعبير "المحبَّة" – وهي النَّغمة التي ازدادت وتيرتُها هذه الأيام – بل هو في الحقيقة تفريطٌ في "الوديعة". فالمحبَّة المطلوبة اليَوم، تعني أنْ تحترم كلُّ كنيسة، إيمانَ الكنائس الأُخرى وقوانينَها.

وأمَّا عن إجابة السؤال الثَّاني، أسردُ عليكم ما لم يُعرف من قبل.

وهي قصَّة تشرح علاقة أبينا الرُّوحي القُمُّص متى المسكين بأولاده الرُّهبان في الدَّير، وكيف كان يهتم بأمر خلاصهم حتى وهُم في أثناء عملهم. فقد حكى أحد رُهبان الدَّير القصَّة التَّالية، قال:

بينما كنتُ أعمل في فرن الخُبز الموجود بداخل الدَّير، خرجت إلى الخارج فوجدت أبي الرُّوحي ماراً فسلَّمت عليه. فجلس أبونا على حافة حوض زرع موجودٌ أمام فرن الخُبز، ووقفت أنا أمامه، وتكلَّم أبونا معي في موضوع عجيب، وهو: الوسائل التي يتبعها الله في بناء النَّفْس. فقال ... الخ.

١– الأب متى المسكين، الخدمة، الطَّبعة الرَّابعة (٣ أجزاء معاً)، ديسمبر ١٩٨٢م، ص ٩٦

٢– الأب متى المسكين، الإنجيل بحسب القدِّيس لوقا، الطَّبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص ٤٢٤